

رسالة إلى فيصل دراج أحد مؤسسي النقد الأدبي



أمين الزاوي
روائي وأكاديمي جزائري

ويستوعب، وهو الصوري، هذه الثقافة النظرية والتطبيقية والإبداعية وعينه على ثقافات بلاد الشام وبلاد العرب والإكراد والبربر وأقوام أخرى تعيش في منطقتها الجغرافية المتعددة الإثنيات والديانات واللغات. لقد عمل فيصل دراج على توطين الفكر الفلسفي الغربي داخل بنية خطاب العقل العربي الأدبي بشكل عام، والنقد الروائي بشكل خاص؛ التوطين من الداخل وليس الترقيع الخارجي، وهو يقوم بهذه العملية التركيبية البنيوية التاريخية المعقدة، كان يحرق الخطاب النقدي الأدبي من "نقد التلخيص" و"نقد التفسير" و"النقد الأخلاقي التربوي" والتي هي عادة ثقافية فقهية إصلاحية تقليدية وليست عقلية أصبحت عالية على النقد العربي المتناول للشعرية والمسردية على حد سواء.

كان فيصل دراج وهو يؤسس النقد الثقافي يقوم بذلك من خلال عمليات إجرائية جديدة، متصلة بـ"المقاربات" السوسيو-أدبية والسوسيو-ثقافية والسياسية-أدبية دون السقوط في الميكانيكية التي خربت النقد الأدبي الجديد الذي نبت على هامش الصفحات الثقافية في منابر إعلامية لأحزاب سياسية يسارية أو قومية. لقد أنقذ فيصل دراج وبكثير من الذكاء النقد الأدبي من سلطة الفقيه الديني وتوأمه الفقيه السياسي على حد سواء، حرره من الشعيرات السياسية "أي البروباغندا" مع أنه اشتغل كثيرا على الديني والسياسي وعلاقتهما بالنص الأدبي السريدي.



ناقد وطن مفاهيم النقد القادمة من الفكر الإنساني في بنيات الخطاب النقدي العربي الذي ظل يعاني ولمدة طويلة

لكن ماذا أصاب هذه البلاد وهذا العالم العربي والمغاربي حين يتجاهل أو يهمل ناقدا بحجم الدكتور فيصل دراج أو يتناساه أو يقلل من أهمية صوته الخالد؟ اعتقد أنه لا يمكن التأسيس لخطاب نقدي دون احترام ما أسماه بالسلسلة التراكمية في الكتابة النقدية، ودون إدراج كتابات فيصل دراج في هذه السلسلة فإن هذه الأخيرة ستظل متبورة، إنه الحلقة الوازنة في الثقافة النقدية العربية في نهاية القرن العشرين ومطلع الألفية الجديدة، إنه حلقة أساسية في غيابها سيكون هناك عطب في إمكانية استئناف ومواصلة بناء خطاب نقدي تنويري جاد وإنساني، مرتبط بالثقافات العالمية ومنتهى ومتشغل بالثقافات المحلية. إذا كانت كتابات فيصل دراج من أكثر الكتابات الحاضرة في البحوث الجامعية في العلوم الإنسانية وخاصة في النقد الروائي والنقد الثقافي إلا أن الناقد نفسه ظل بعيدا أو مبعدا عن مؤسسة الجامعات العربية والمغاربية. اعتقد أن فيصل دراج حرص على حرية أولاد إذ كان يعرف أن حرية الأوطان هي من حرية نخبها. فشكرا دكتور فيصل دراج على هذا الوجود الفعلي والرمزي الذي حرك وفك المجتمع الثقافي والأدبي الذي نعيش فيه وله.



لا يكتب إلا ما يؤمن به

سيرة توفيق الشهير بـ«توتو» عالم من الهلوسة والاضطرابات

نهى محمود تدخل بعين الكاميرا إلى أعماق حارة غريبة



شخصيات مضطربة تحكي واقعا (لوحة للفنان إسماعيل الرفاعي)

الثمانية "هنا كل شيء محتمل وقابل للحدث"، بل وتختتم بها روايتها "هنا حيث كل شيء محتمل وقابل للحدث، في الحارة التي كانت جديدة وزاهية في زمن آخر، ثم نال العجز والتراب من روحها وبيوتها. تلك البيوت القديمة غير المتناسقة، والشرفات المفتوحة، والبيوت، والبشر، وحكاياتهم".

تحيل العبارة السابقة إلى عالم من الدهشة التي تغلف المكان، وهو الحارة الشعبية، التي تتعاطى معها الكتابة على نحو مغاير للمساعد والمألوف، فلنسا هنا أمام الحارة المحفوظة (نسبة إلى نجيب محفوظ) مثلا بعوالمها وثماتها، لكننا أمام حارة جديدة دهستها التحولات العاصفة بدءا من سبعينات القرن الماضي وحتى الآن، وربما كان تعميق هذه التحولات وعدم المرور العابر عليها ما يفتقده النص حقا خاصة في الإشارة إلى أنماط التدين الشكلي التي غزت الحارة المصرية. ثمة حس ساخر في الرواية ليس فحسب على مستوى الدلالة الكلية للعمل، حين نصبح أمام ملهات مأساوية بالتعبير المسرحي، لكن أيضا على مستوى المواقف السردية المعروضة، وهذا ما يبدو بارزا في فصلي "البحث عن عروس" و"الرفيق كوكو بطل الماساة".

وهناك إشكالية فنية تتصل بالبوح الذاتي الذي كان توتو بحاجة إليه أكثر، وفي مواضع مختلفة من الرواية، مع توظيف الكتابة لألية المونولوج الداخلي في النص، لأننا أمام بطل إشكالي بامتياز، مضطرب نفسيا، يبدو محملا بالفجعة والسخرية الدافعة للتساؤل في الآن نفسه.

وبعد... حين يفتح النص الروائي على عالم الهلوسات والاضطرابات النفسية، ويضع قدما في قراءة الواقع وقدم في الوعي بحركة الشخصية الروائية وتفاعلاتها في المحيط الاجتماعي، ساعته تتنفي تلك المسافة الحرة بين الحلم والحقيقة، ويصبح الواقع أكثر فانتازية من المتخيل. وهنا في رواية "سيرة توفيق الشهير بـتوتو" نجد نصا يزاوج بين الواقعي والمتخيل في بنية سردية متجانسة، مستحضرا عالما يقف في قلب الجنون والعبث والماساة.

بوصفه فضاء نفسيا يتسع لانتعالات البشر وهواجسهم وأحلامهم المقموعة في لحظات مختلفة من حياتهم. توظف الكتابة تقنية عين الكاميرا، وترصد الأحداث عبر ذات ساردة من داخل الحكاية لكنها لم تتورط فيها تورطا كبيرا، ومن ثم أخذت تنتقل بين مسارات سردية مختلفة وأحداث متنوعة، معاينة شخصوا مسكونين وبالسخرية في آن، على نحو ما نرى في صديق ابن خالة والسدة توتو، والمتعاطف معه والباحث عن أذكار دائمة له، والذي يشعر بمسؤولية أبوية تجاهه، حتى يفيض به الكيل في النهاية من توتو وجنونه ونزقه اللاهوائي، فيهوي بزجاج النرجيلة فوق رأسه، موقفا إياه عن الثثرة اليومية والجمال المحفوظة بعد إفساها أي زيجة يقدم عليها.

حارة مختلفة

تلعب الشخصيات الهامشية دورا مركزيا في حركة السرد، وبعضها يمثل ما يعرف بالشخصية الحافظة أو الحركة التي تدفع بالموقف الدرامي الراكد إلى الأمام، مثلما نرى مع شخصية ميمون ولعة، الذي تحول إلى ميمي ولعة، وصار بلطجيا يشعل النيران في أي وقت، ويجيد اللعب بها مرردا بيقين شديد أن النار لا تحرق مؤمنا، حتى تصيبه لعنة النار في نهاية الفصل، فيموت محترقا متفحما.

تبرز في الرواية تلك النهايات المأساوية العنيفة للشخصيات المركزيين منهم والهامشيين، بدءا من وفاة الأب والأم بسم الفران، ووصولاً إلى ميمي ولعة الذي يموت محترقا، فحدث الرواية الرئيسي، يتمثل في تلك الوفاة الدرامية لأبوي توتو، الذي جمع حبات الطماطم المسمومة المتناثرة في جنبات الشقة من أجل قتل الغار العابت بحياتهم.

وبعد أن يصنع لهما منها إفطارا (جبن بالطماطم) فلنا منه أن الطماطم وقعت من كيس الأب المهترئ، يموت والدان، لكن الحكاية لا تموت، ولا سيرة توفيق السيد عبد الحميد الشهير بـ"توتو" ولا ناسه المختلفين.

ترصد من خلاله ملامح المكان الروائي فتتخذها الكتابة عنوانا لأحد مقاطعها

كان نجيب محفوظ من أبرز وأهم الكتاب المصريين والعرب الذين تناولوا عوالم "الحارة" والأحياء الشعبية بشيء من الواقعية والسحرية أيضا، وهو ما تبعه فيه الكثير من الكتاب العرب، الذين باتوا يكتبون عن الحارات الهامشية بشيء من الكشف والمكاشفة. لكن رواية "سيرة توفيق الشهير بـتوتو"، تذهب من طريق آخر لرسم عوالم المكان بأشخاص غير معهودين.

المستهجن. وكانت الكتابة واعية بحركة الشخصية الروائية هنا، وتحولات الفعل الإنساني الخاضع للعشرات من العمليات المعقدة لشخصية إشكالية مثل توتو، لكن اللافت هنا أننا لسنا إزاء مرثية مثلا ولا محاولة لاستجلاب التعاطف الكاذب معه. تبدو شخصية توتو، وهو البطل المركزي في الرواية، مركبة، وتمثل مركزا للسرد، فحولها تتمحور الحكايات، في رواية "بوليفونية" متعددة الأصوات، حيث ثمة أصوات مختلفة تحكي بدءا من السارد الرئيسي الذي يقبض على زمام الحكاية، مروراً بالراوي الداخلي المتورط بقدر ما في الحكاية، ووصولاً إلى توتو نفسه، وحمدي أخيه الأكبر.

لا تقدم الكتابة روايتها دفعة واحدة، بل تقدمها على دفعات؛ ومن ثم فهي تتخذ من أسلوب المقاطع السردية صيغة للحكي، وتتشكل الرواية من ثمانية مقاطع، يحمل كل مقطع منها عنوانا فرعيا، يمثل بنية دالة في النص، أي بنية قادرة على أن تؤدي وظيفة داخل مسار السرد، لتقابلنا العناوين التالية: عن توفيق الشهير بتوتو، هنا كل شيء محتمل وقابل للحدث، بيت من ثلاثة أدوار، توتو الجالس في الشرفة، البحث عن عروس، حمدي يقص ما حدث، الأيام، الرفيق كوكو بطل الماساة.

يمثل البيت ذو الشرفات الثلاث والحكايات التي لا تنتهي عنه فضاء مركزيا للرواية ويطلنا من أبطالها الأساسيين، فسكان البيت هم أنفسهم شخصيات الرواية الأساسيين: توفيق الشهير بتوتو، ومعه عائلته المنكوبة به: حمدي (الأخ الأكبر)، والأب والأم والراجلين في مأساة ملهوية بامتياز، لا تفصح عنها مقاطع الرواية مبكرا، وهناك أيضا عم شربين وزوجته سحر، وفاروق وأم سعيد وابنها في الطابق الأخير.

ولا تتعامل الكتابة مع البيت ذي الطوابق الثلاثة بوصفه فضاء ماديا ترصد من خلاله ملامح المكان الروائي فحسب، لكنها تتعاطى معه بالأساس



يسري عبدالله
كاتب مصري

تنفتح الرواية الآن على جملة من الاقتراحات السردية المتعددة، تستعير الواقع وتقيضه، وتقرب من السيرة الشخصية وتبتعد عنها في آن. تراقب وتشير، مثلما تفكك وتسائل.

عبر هذا الفهم جنس مفتوح بالأساس على اشتراطات لا نهائية تبرز رواية "سيرة توفيق الشهير بتوتو"، للروائية المصرية نهى محمود، والصادرة في القاهرة عن مؤسسة "بتانة".

الرواية تزاوج بين الواقعي والمخيل في بنية سردية متجانسة، مستحضرة عالما يقف في قلب الجنون والعبث والمأساة

تراوغ الرواية قارئها منذ العنوان حين تنص على فكرة السيرة، لكن المدلول السريدي سينسج كثيرا في النص، لنصبح أمام تلك البلاغة الساخرة للمقموعين، الذين يمثلهم على نحو بارز توتو المضطرب نفسيا، وصاحب الحيل الدفاعية المستمرة، التي تأخذ نزوعا عبثيا ومأساويا في آن، من قبيل أن يخلع بنطاله فجأة للفتاة الذهب لخطبتها، وحينما تصرخ البنات المذهولة من هول ما يحدث، ينهها بالتحرش به، وعلى غرار اتهامه العبثي أيضا لفتى توصيل الطلاب إلى المنازل بمحاولة اغتصابه.

شخصيات مضطربة

يجمع توتو بين حيلتي الإسقاط النفسي الموجه ضد الآخرين في الخارج، والتبرير الذي يعني كذبا على النفس بالأساس، وعيرهما يمارس سلوكه